الإنفتاح المنهجي في قراءة الشعر الجاهلي
- تجربتي عبد الملك مرتاض وأدونيس أنموذجا -

د.مريم عزي
جامعة سيدي بلعباس الجزائر

أفرز الإنفتاح النقدي العربي على النقد الغربي ؛دراسات نقدية عربية عملت على تطوير الأدوات النقدية المسخرة لقراءة المتون الأدبية العربية (القديمة منها والحديثة)*المستفيدة ممّا حقّقته الحركة النقدية الغربية ،الطامحة إلى تقديم الأفضل دائما ،ما دفع بنقادها إلى إعادة الحسابات في كل مقاربة نقدية تقدّم ضمن ما يسمى بنقد النقد أو ما يعرف بقراة القراءة.

حيث وُجِّهَتْ للقراءات السياقية والمقاربات النسقية أراءً نقدية تثمّن جهود أصحابها وتستحثّهم على تدارك المزالق والهنات التي سقطوا في شركها ،ما أوجب عليهم إعادة النظر في مسألتي :ربط الأثر الأدبي بمحيطه الخارجي ومسألة دراسته وفق بنيته الداخلية لا غير مدركين أنّ"المناهج بصفة عامة في النقد الأدبي تصلح وتفيد حين تتخذ منارات ومعالم ولكنها تفسد وتضر إذا جعلت قيودا وحدودا"[1]تفاديا لهذه القيود التي أصبح الناقد يخضع بها النص الأدبي إخضاعا ،وكأنّه في مخبر لتجريب الأدوات المعرفية والنقدية بدأ التفكير في أمر مختلف .

الأمر الذي طرح تصوّرا جديدا يمكن من خلاله المزج بين التوجهين؛بحيث لا يمكن تجاهل المؤثّرات الخارجية المساهمة في تكوين العمل الأدبي، كما لا يمكن في الوقت نفسه تغاضي البنية النصية الداخلية له فظهر هذا التصوّر ضمن مسميات عديدة منها:**التأليف المنهجي ،التركيب، الإنفتاح** أو حتى ما إصطلح عليه **بالقراءة الحرة** أو **اللامنهج**[2] إذ كان "لا مناص من التفكير في جهاز إجرائي جديد لتسخيره في قراءة النص وفكّ شفراته وتحليل جمالياته والعمد إلى تأويله"[3]وفق نظرة تكاملية بعد ما

أثبتت القراءة الأحادية عجزها في اِكتناه أغوار الأعمال الأدبية، وككل تصوّر جديد يُطرح على الساحة العربية حظي هذا الأخير بالمساندة والمعارضة ،ولكل موقف مبررات جعلت أنصاره يتمسّكون بوجهة نظرهم.

فجاءت فكرة التأليف بين منهجين كما فعل **عبد الملك مرتاض** الناقد الجزائري في كتاباته عامة وكتابه **السبع المعلقات – مقاربة سيميائية أنتروبولوجية لنصوصها** –خاصة ووازعه إلى ذلك فكرة أنّ "الناقد لا تكتمل أدواته ولا تتفق بضاعته من العلم ولا يقوم له وجه من المعرفة الرصينة،ولا يذيع له صيت في نوادي الأدب(...) ما لم يعجّ على هذه الأشعار يستنطقها اِستنطاقا"[4] تصريح يحث الناقد المعاصر على قراءة الشعر الجاهلي والإقبال على النصوص الشعرية القديمة،بغية تسخير كل الأدوات النقدية واِختبار المعارف المكتسبة.

وبما أنّ فكرة اِختيار المنهج تبنى أساسا على مدى اِستجابة النص المقارب لما تمّ اِختياره،فإنّ الباحث قام بالمزاوجة بين المنهج الأنتروبولوجي والسيميائي،زاعما أنّ الأوّل يعينه في الكشف عن منابت الشعر الجاهلي وجذوره ،في حين يمكّنه الثاني من تحليل مواطن الجمال والدلالات الخفية فيه"فلو اِجتزأنا بالقراءة الأنتروبولوجية وحدها لوقعنا في الفجاجة والنضوب،كما لو اِقتصرنا على القراءة السيميائية وحدها لما أمنا أن يفضي بنا إلى مجرّد تأويل السطوح،وتفسير للأشكال ووصف للظواهر دون التولّج في أعماق الموالج"[5]كما يرى أنّ مقاربة المعلقات السبع بهذين المنهجين يحقّق التكامل والعطاء لهذه الدراسة ؛لكن المتتبّع للتحليل يجد **عبد الملك مرتاض** لم يفصل بين هذين المنهجين بل تناول الظاهرة الأدبية أنتروبولوجيا وسيميائيا دون تمييز بين إجراءات هذا المنهج أو ذاك .

لكن هذا لا يمنع من تتبّع خطوات التحليل من خلال إجراءات سيميائية اِختارها من أجل مقاربة قصائد المعلقات ،لاسيما أنّ عنوان الدراسة منذ البدء يُعرب على أنّ

صاحبها يكتفي فقط بتطبيق بعض الاجراءات- إذا ما ركزنا على مصطلح ((المقاربة))-فنجده يشتغل على ((الحيّز ،التناص ،الأيقونة))دون سائر الإجراءات السيميائية الأخرى التي يمكن من خلالها مقاربة النصوص الشعرية :كالتشاكل مثلا ،التباين والتقابل.

أما المنهج الأنتروبولوجي فقد اِستند عليه الباحث في مسألة البحث عن أمور هي: الانتماء القبلي لأصحاب المعلقات، طرح تساؤلات حول أعمارهم ،المعلقات وأقدمية الشعر العربي، عمر شعر ما قبل الإسلام،مسألة تعليق المعلقات،اِستبعاد فكرة التعليق مع عرض أراء أقدم النقاد **كاِبن رشيق** مثلا و**اِبن قتيبة** من باب توصيل الحلقة ،تاركا باب البحث مفتوحا "ولعلنا ببعض ذلك تعمدنا أن نذر الباب مفتوحا للنقاش والجدال من حول هذه المسألة اللطيفة التي يلذّ حولها البحث،ويحلوا عنها الحديث.... فليظلّ باب البحث مفتوحا للمجتهدين "[6] و هاته ميزة الكتابة لدى **عبد الملك مرتاض** التي تترك مجال البحث مفتوحا أمام كل اِجتهاد يسعى إلى خوض التجربة .

يبدو واضحا لمتتبّع الكتاب أنّ **عبد الملك مرتاض** لم يلتزم منهجا واحدا في قراءته للمعلقات السبع؛إذ لم يغيّب سياقات هذه النصوص الشعرية من خلال اِعتماده على القراءة الأنتروبولوجية،كما لم يتجاهل نصيتها مهتما بنسيجها اللغوي في إطار العلامة وما تحيل إليه من دلالات تغني النص ،ما جعله يقع في مضطرب التأويلية تارة والأسلوبية تارة أخرى.

هكذا يمكننا اِعتبار تجربة هذا الباحث جديرة بالدراسة ،كونها تعمل على قراءة العمل الأدبي وفق رؤية تعتمد على **التأليف المنهجي**،فتعسى إلى تطعيم منهجين مختلفين في المنطلقات والأسس مع بعضهما من أجل تقديم قراءة متكاملة كما أسماها؛قراءة تخدم النص ولا تضطر إلى السعي وراء اِستقامة المنهج.

وممن اِستعدّوا**عربيا للتحرّر من تقاليد النقد الأدبي نذكر أيضا على سبيل المثال لا الحصر **أدونيس** (علي أحمد سعيد) في كتابه **كلام البدايات**،حين حاول قراءة النصوص الشعرية الجاهلية التي اِختارها***وفق رؤية تتحرّر من سلطة المنهج:"إنّ المنهج قد يكون جيّدا لمبتكره،لكنه بالنسبة إلى غيره ليس إلا مدرسة وأنا غير مدرسي ،ولا أكتم رأيي أنّ المنهج (...)لا يغريني أبدا "[7]والمتتبّع للقسم الأوّل من هذا الكتاب يقف على حقيقة مفادها أنّ الباحث لم يقف عند منهج نقدي بذاته كما يفعل أنصار المنهج ،وإنّما حاول الإفادة من كل أساليب النقد وتقنياته لاسيما أنّه مدرك لخصوصية النص الشعري الذي" لا يقدّم اليقين بل يقدّم الاِحتمال لذلك هو يتجدّد مع كل قراءة(...) إنّ قراءة العمل الشعري لا تصح بما هو خارج عنه ولا بمجرّد نصيّته المحضة،فقراءته بعناصر من خارجه إلغاء له وقراءته بذاته إلغاء لتاريخيته واِجتماعيته"[8] رأيّ يحثّ على قراءة العمل الشعري بمنهج منفتح ؛منهج لا يلغي بنية النص كما لا يلغي الظروف المحيطة به .

فالدراسات التي تلغي سياقات النص الإبداعي وتعتمد فقط على بنيته الذاتية"هي دراسات تعتبر الأثر الأدبي أجزاء معزولة، لهذا نرى أصحابها يعتبرون هذا الأخير نمطا بنائيا أو شكليا لا يؤدّي وظيفته إلا بجانب واحد في الأثر(...)ويحاولون تفسيره على ضوء نظرة وحدية الجانب"[9] هذا يعني أنّ الأخذ بالمنهج النقدي الواحد أثناء تناول الأثر الأدبي يؤدّي إلى عدم منح الأثر حقّه من الدراسة والبحث.

كما أنّ العمل الفني الناضج هو الذي"لا يمكن أن يخضع تماما لأيّ منهج نقدي بالذات،لأنّ هذا المنهج مهما يكن عميقا وشاملا فإنّه لا يخرج عن كونه مجرّد معيار أو مقياس" [10]لذلك لا ينبغي للناقد الاِهتمام بالمنهج على حساب النص المقروء كونه يبقى وسيلة يلجأ إليها الناقد لا هدفا يسعى وراءه .

وعليه ينبغي إعطاء الأولوية للنص الأدبي لا للمقاربة ؛قناعة تحرّر الناقد من مسألة السعي وراء اِستقامة المنهج من جهة،وتجعله من جهة أخرى حريصا على إعطاء المتن حقّه من الدراسة والتمحيص دون إغفال أيّ جانب من جوانبه،ما يجعل القراءة منفتحة على مناهج سياقية ونسقية في آن واحد على حسب ما تتطلبّه خصوصية كلّ نص.

على هذا الأساس جاءت قراءة **أدونيس** للشعر الجاهلي في **كلام البدايات** مبنية على التأمّل فما لديه "لا يتعدى كونه تأملا ،وممارسة في أفق إعادة النظر والتساؤل في معزل عن الكلام السائد عن الشعر الجاهلي وفي إطار العمل على كتابة تاريخ جديد للشعر الجاهلي بوصفه حدسا ودلالة وتعبيرا ،أي بوصفه نظاما فنيّا ونظاما للمعنى"[11] إذ لم يحاول **أدونيس** تقويم النصوص الشعرية حتى تتناسب مع المنهج النقدي، وإنّما كان إقباله إقبال المتذوّق المصغي لها،لا إقبال المتسلّح بالأدوات النقديّة الذي يسعى جاهدا من أجل اِستقامة منهجه المتبنى .

لكن هذا لم يمنع **أدونيس** من التزوّد بخبرة الماضي وثقافة الحاضر أثناء تعامله مع الشعر الجاهلي؛خبرتان جعلتا قراءته تشهد توازنا في التناول ذلك لأنّ"كلّ نقد إنّما يقوم بِاستدعاء كتابات نقدية سابقة ويعيد إنشاءها داخل نصّ جديد(...)لكنّها اِستعادة تعيد إنتاج السابق عبر هدمه في لغة الحاضر التي تعيد بناءه"[12]هذا يعني أنّ قراءة **أدونيس** لم تأت من فراغ؛بل اِرتكزت على نصوص اِستوعبتها،حوّرتها وطوّرتها من أجل إعادة كتابة نصّ جديد.

قراءة تبدو في الكثير من الأحايين"مستلهمة لآخر ما يُستجد من الغرب من أفكار ومناهج واِتجاهات بعقل [قارئ] لا يعرف الرهبة ولا يتحرّج من المساءلة"[13]مساءلة جعلت صاحب القراءة يرتقي بالنصوص التي اِختارها للتحليل إلى أبعد الحدود وأوسع المجالات،فمثلا أثناء قراءته لمختارات **عروة بن الورد** تتضح قراءته بطريقة أو بأخرى

للفكر الإشتراكي الحديث،أمّا قراءته **للامية العرب** فكانت قراءة لمفاهيم الحرية والرفض كما حدّدها الفكر المعاصر.

في حين تناول أدونيس للنصوص الشعرية وفق تصوّر ينفتح على مناهج نقدية مختلفة فهذا لم يكن إلا محاكاة لما حقّقه النقد الغربي في قراءته للأعمال الإبداعية"فإننا نعيش واقع تداخل المناهج(...)ولنا أمثلة كثيرة من الذين لم يحصروا أنفسهم في منهج معيّن وعلى رأسهم دريدا،إيكو،بارت،باشلار"[14] لكن هذا لا يمنع من اِعتبار تجربة أدونيس تجربة نقدية عربية حاولت عدم حصر قراءتها في إطار منهج نقدي معيّن،بل اِرتضت تداخل المناهج تصوّرا لها.

فكانت قراءة عملت على إحداث تكامل نقدي بين مناهج نقدية تغيّب تارة وتستحضر أخرى ،لتفسح المجال لنصوص شعرية أثبتت في كل مرّة طواعيتها لكل عمل جاد يسعى إلى اِكتناه أغوارها بغية تقديم المغاير والمختلف عمّا قدّم حولها من قبل .

الهوامش:

*دافع النقاد العرب إلى التفكير في إعادة قراءة التراث العربي بمفاهيم جديدة ورؤى نقدية مختلفة هو اِختبار قدراتهم النقدية والمعرفية من جهة،وإدراك من جهة ثانية مدى اِستجابة النصوص العربية لهاته المناهج النقدية الوافدة ،وتصحيح الآراء المجحفة في حق هذا التراث من جهة ثالثة ،لهذا حظي الشعر الجاهلي من جديد بما يعرف بالقراءة الثانية.

[1]- سيد قطب،النقد الأدبي –أصوله ومناهجه–،دار الشروق،القاهرة(مصر)،ط.10، 2003،ص. 253.

[2]- هناك من اِعتبر أن صعوبة عمليتي التشريح والتركيب التي قام بها أصحاب التيار البنيوي الشكلاني (عبد الملك مرتاض،محمد بنيس،أدونيس وخالدة سعيد)كان السبب في جعلهم يفكرون في تطبيق **اللامنهج** أثناء تعاملهم مع النص الأدبي ،ويقصد به التعامل مع النصوص الأدبية دون تبني منهج نقدي معيّن ،ينظر شايف عكاشة ،نظرية الأدب في النقد البنيوي العربي،ديوان المطبوعات الجامعية،وهران (الجزائر) د.ط،2006،ص.(25 ،33).

[3]-عبد الملك مرتاض، في نظرية النقد–متابعة لأهم المدارس النقدية المعاصرة ورصد لنظرياتها–، دار الهومة ،الجزائر،د.ط، 2005،ص. 89.

[4]-عبد الملك مرتاض،السبع المعلقات–مقاربة سيميائية/أنتروبولوجيا لنصوصها –، اِتحاد كتاب العرب ،دمشق(سوريا)،د.ط،1998،ص،8.

[5]- المصدر نفسه،ص. 88.

[6]- المصدر نفسه،ص.52.

**الإستعداد لا يعني أبدا الاختراع أو حتى السبق في التناول وإنّما يعني الرغبة في خوض خوض تجربة نقدية تتحرّر من سلطة المنهج وتجنح إلى الإختلاف والتميّز .

***إختار أدونيس في هذا الكتاب قراءة معلقتي امرئ القيس وعمرو بن كلثوم،لامية الشنفرى ومختارات لعروة بن الورد، ضمن أربع شعريات هي :شعرية الجسد ،شعرية العنف،شعرية الرفض ،شعرية الرسالة.

[7]-أدونيس(علي أحمد سعيد)، كلام البدايات، دار الآداب،بيروت(لبنان)، ط.1، 1989،ص. 189.

[8]- المصدر نفسه، ص.(27، 28).

[9]- سمير سعيد حجازي،قضايا النقد الأدبي المعاصر، دار الأفاق العربية،القاهرة (مصر)،د.ط 2007، ص.308.

[10]- نبيل راغب ،النقد الفنّي،دار مصر للطباعة، الفجالة(مصر)، د.ط، د.ت، ص. 9.

[11]- أدونيس،كلام البدايات،ص.8.

[12]- إلياس الخوري،الذاكرة المفقودة-دراسات نقدية-،مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت (لبنان) ،ط.1 1982، ص.11.

[13]- سفيان زدادقة،الحقيقة والسراب-قراءة في البعد الصوفي عند أدونيس مرجعا وممارسة-،منشورات الاختلاف ،الجزائر،ط.1،2008،ص.12.

[14]- عبد القادر فيدوح،حوار أجرته معه مجلة أيقونات،منشورات رابطة سيما للبحوث السيميائية سيدي بلعباس(الجزائر)، 2010، ع.1، ص.137.